

حجاجة الاستفهام في الخطاب النبوي الاستفهام الحجاجي التفاعلي (نموذجاً)

اعداد الباحثة

صفاء حمدي محمد علي

لقد شهدت الساحة الأدبية حراكاً ثقافياً نوعياً يتخذ وجهة جديدة من خلال محاكاة تجارب جديدة في الكتابة الحديثة تسمى بالكتابة الرقمية، فظهور الوسائط والأدوات الجديدة اتصالياً ومعرفياً طرحت نفسها بقوة لقيادة موجة من التغيير في بنية الذهنية الكتابية، لكن هذه الموجة مازالت في إطار التنظير، حتى إنه لا يوجد إلا تجارب نقدية محدودة تناولت الظاهرة بالدراسة والنقد التفاعلي *interactif*.

فالحجاج التفاعلي يركز على خاصية التفاعل والتبادل بين الخطيب والمتلقين، كما أنه اتصالي بحيث يكون الجواب فيه مباشراً ومتواصلاً، والذي يحقق التفاعل في أقصى درجاته ومستوياته بين النص وعلاماته بعضها ببعض (اللغة، الصورة، الصوت، الحركة سواء كانت متصلة أو منفصلة وبين العلامات بعضها ببعض لكونها مترابطة) وبين الخطيب والمتلقين.

وهو رؤية جديدة للنص الأدبي وللإنسان والكون وللأدب بشكل عام، أساسها التواصل الإنساني والتفاعل الإبداعي الخلاق، كما اعتبر هذا الوسيط الجديد الذي أدخل اختلافات جذرية على الأدب بما يوفره من تقنيات قائمة على الميديا *multi - media* من صورة وصوت ومؤثرات أخرى جعلت من الأدب إنتاجاً متشعباً، مقدماً ممارسة جديدة هي الآن بصدد تشكيل تاريخها المتميز عن الممارسة القديمة، ولعل تركيزي على صفة التفاعلية وإصاقها بالأدب العربي عامة والنبوي خاصة، يعود إلى كونها جوهر النص الأدبي التفاعلي الذي لا يتحقق إلا بوجود ميزة التفاعل.

فالحجاج التفاعلي هو الحجاج الاتصالي المباشر الذي يرمي إلى التفاعل المتبادل بين الخطيب والمتلقين، من حيث مستويات النص وعلاماته من اللغة والصورة والصوت والحركة متصلة أو منفصلة.

وقد لاحظ أستن أن هناك عبارات إذا نطقت بها لاتنشئ قولاً فحسب، بل تؤدي فعلاً في الوقت نفسه، مثل أن تقول لمن بشرك بمولود: سميته محمد، فقد قلت وفعلت في الوقت نفسه، ولكن الأفعال ليست كلها من هذا النوع، لذلك فقد قسم أستن الأفعال قسمين

1-أفعال إخبارية: تصف الواقع الخارجي، وهي تنسم بالصدق أو الكذب.

2- أفعال أدائية ، تؤدي بواسطتها أفعال معينة ، ولا يمكن وسمها بصدق أو كذب ، بل توصف بأنها موفقة أو غير موفقة ، ومنها : الاعتذار ، الوصية ، الوعد ، النصح ... إلخ وهي أفعال تفاعلية .

ولا تكون الأفعال عنده ملائمة إلا إذا تحقق فيها نوعان من الشروط هي شروط الملاءمة وشروط قياسية ... ولكن التصنيف الثنائي للأفعال كان للوهلة الأولى قاصراً عن استيعاب تعقيدات اللغة الطبيعية ، إذ إن بعض الأفعال الإخبارية تتضمن أداءً ، مثل : جاء الدجال التي تتضمن تحذيراً ... لذلك عدل إلى القول إن الفعل الكلامي يتركب في الوقت نفسه من ثلاثة جوانب لا يمكن فصلها إلا بغرض الدرس ، وهي (1) :

1-الفعل اللفظي : وهو المتألف من أصوات لغوية ضمن تركيب نحوي صحيح ينتج عنه المعنى الأصلي .

2-الفعل الإنجازي : وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي مع معناه الأصلي

3-الفعل التأثيري : وهو الأثر الذي يحدث عند السامع من خلال الفعل الإنجازي

فقد يفهم الباحث المتلقي أنه يحثه على أن يتأخذ موقفاً محدداً تجاه شيء ما ، (التأثير في الرأي) أو ينجز فعلاً معيناً (التأثير في السلوك) وتعدُّ هذه الوظيفة في شقها المقصود به التأثير في الرأي ، ومن الوظائف الصالحة للنصوص الحجاجية التي ترمي إلى الإقناع .

وقد عرضت هذا الفصل من خلال مبحثين : الأول : الاستفهام الاستدراجي وأثره الحجاجي، وسأعرض - إن شاء الله - من خلال مناقشة هذا الفصل : كيف أقام النبي (صلى الله عليه وسلم) حججه في إثبات بعض القضايا من خلال ألفاظ وعبارات اللغة التفاعلية، والمبحث الثاني : استفهام الاستنباطي وأثره الحجاجي، وسأعرض من خلال هذا المبحث أيضاً كيف أثبت النبي حججه لإقامة دعواه.

المبحث الأول : الاستفهام الاستدراجي وأثره الحجاجي :

¹ -انظر كيف تفعل الأشياء بالكلمات ،

" How to do things with words," University Press, Oxford, 1962see Jean Osteen,"

أي التسلسل الحجاجي ؛ أي مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال؛ والكلام فيه وإن تضمن بلاغة فليس الغرض هنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه؛ لأنه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها، والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيرا في خلاصه، لا قصيرا في خطابه، فإذا لم يتصرف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده، وإلا فليس بكاتب، ولا شبيه له إلا صاحب الجدل، فكما أن ذلك يتصرف في المغالطات القياسية، فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابية.(2) .

فالحجاج الاستدراجي : هو الحجاج الذي يقوم فيه المخاطب بتسلسل الحجج ، مستخدما ألفاظا خطابية فعالة لتحقيق غرض المخاطب لاستدراج الخصم إلى التسليم بما يرمى إليه .

فإن لكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها ، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم، ويبدو هذا واضحا جليا في أساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب(3) ، فقد نرى النبي (صلى الله عليه وسلم) يسأل الحجج بترتيب بلاغي كما نرى في حديث الحميدي قال، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : مَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَا وَكَذَا ، يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِي ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقَالَ لِي ذَاتَ يَوْمٍ : يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِي أَمْرٍ اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ : أَتَأْتِي رَجُلَانِ ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رِجْلِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رَأْسِي ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رِجْلِي لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي : مَا بَالُ الرَّجُلِ ؟ قَالَ : مَطْبُوبٌ ، يَعْنِي مَسْحُورًا ، قَالَ : وَمَنْ طَبَّهُ ؟ قَالَ : لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ ، قَالَ : وَفِيمَ ؟ قَالَ : فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرَ فِي مُشْطٍ وَمَشَاقِقَةٍ ، تَحْتَ رَعُوفَةٍ فِي بئرِ ذَرْوَانَ فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : هَذِهِ البئرُ الَّتِي أُرِيْتَهَا ، كَأَنَّ رُعُوسَ نَخْلِهَا رُعُوسُ الشَّيَاطِينِ ، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَاءِ فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُخْرِجَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهَلَّا ، تَعْنِي تَنْشَرَتْ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي ، وَأَمَّا أَنَا فَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا قَالَتْ : وَلَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ ، رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ ، حَلِيفٌ لِيَهُودٍ(4).

²-(انظر المثل السائر في أدب الكاتب ، لعبد الحميد الكاتب ج 2 ص 64)

³-(انظر مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان ، ط 2 ، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1998 م ، ص 60 .

⁴-(صحيح البخاري، كتاب الأدب ، باب ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر، ج 3 ، رقم الحديث : 6063 ص 150 ،

-(مطبوع : مسحور ، و) فهلا تنشرت) : نشر الشيء أي إظهاره، الإخراج الواقع كان لأصل السحر والاستخراج المنفي كان لأجزاء السحر .

-(انظر فتح الباري ج 11 ص 223

قال ابن بطال : وجه الجمع بين الآيات والحديث أن الله لما نهى عن البغي، وأعلم أن ضرر البغي، وضمن النصر لمن بُغي عليه، كان حق من بغى عليه أن يشكر الله على إحسانه إليه بأن يعفو عنم بغي عليه، وقد امتثل النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يعاقب الذي كاده بالسحر مع قدرته على ذلك (5) .

فالتأمل للحديث يجد النبي (صلى الله عليه وسلم) يسلك الحجج ليصل إلى النتيجة المرجوه وهي النهي عن البغي، ولم يعاقب النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي كاده بالسحر مع قدرته على عقابه، وسرد الحوار الذي دار بينه وبين الملك والذي يثبت له البغي عليه من أبيد بن أعصم، فقد جاء بالحجج في تسأل حجاجي مرورا بالحجج مرتبة ترتيباً بلاغياً منطقياً، حتى يصل بالمتلقي إلى لنتيجة المرجوة والتسليم لها كما يلي :

فراه يأتي بالحجة الأولى، وهي علامة السحر : (مَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَا وَكَذَا ، يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي أَهْلَهُ وَلَا يَأْتِي) ، ثم يأتي بالحجة الثانية التي تؤكد كيده بالسحر بالتبادل : " la rëciprocite " أي أن الموجودات التي تنتمي إلى فئة واحدة يجب أن تعامل بالطريقة نفسها " (6) .

أي زد الحجة بمثلا كرد النمروود أنا أحي وأميت ، فقد قال هنا (مَا بَالَ الرَّجُلِ ؟ قَالَ : مَطْبُوبٌ) ، ثم يصرح بالفاعل به، ومن كاده (صلى الله عليه وسلم) بالسحر، وهو قوله : (قَالَ : وَمَنْ طَبَّهُ ؟ قَالَ : لِيَبِيدُ بِنُ أَعْصَمَ) ، بأسلوب استفهامي بلاغي حجاجي، فقد أثبت النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه مطبوب، ثم تطرق إلى إثبات من طبه، في تسلسل حجاجي حتى يصل إلى النتيجة التي يرجوها وهي النهي عن البغي، والدليل على إقتناع السيدة عائشة بقوله وبأنه طب وكاده لبيد بالسحر، استفهامها (: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهَلَّا ، تَعْنِي تَشْرُتَ ؟) ، لأن تسليم المتلقي بالمقدمات والحجج التي قدمها المتكلم فهو مقتنع من طرفه، ومتى ردها أو رفضها فهو محاجج، ثم يصل بها النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى النتيجة المرجوة وهي قوله (وَأَمَّا أَنَا فَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا) أي العقاب على الظلم، والبغي وأن المبغي عليه له النصر، وأن الله سينصره .

ونرى التسلسل الحجاجي أيضاً في خطاب النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما مر عليه رجل ذو غنى ونسب، ومر عليه آخر ليس بصاحب مال ولا نسب في حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أنه قال : " مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ : (مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا ؟) ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ ، قَالَ : فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا ؟) ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، هَذَا

⁵ - فتح الباري ج 11 ص 223

⁶ - مناع القطان، مباحث في علوم القرآن ، ص 61 .

حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :
(هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِْلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا) (7)

المراد احتياج المخلوق إلى الخالق فالفقر للمخلوقين أمر ذاتي لا ينفكون عنه والله هو الغني ليس بحاجة لأحد .

قال أحمد بن نصر الداودي : الفقر والغنى محتان من الله يختبر بهما عباده في الشكر والصبر كما قال تعالى " إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً " (2) وقال تعالى : " وَنَبَلُّوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا ۗ وَاللَّيْنَا تَرْجَعُونَ " (8) ، " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا " (9) ، (10) .

س : أيهما أفضل للعبد حتى يتكسب ذلك ويتخلق به، هل التقلل من المال أفضل ليتفرغ قلبه من الشواغل وينال لذة المناجاة ولا ينهمك في الاكتساب ليستريح من طول الحساب أو التشاغل باكتساب المال أفضل ليستكثر به من التقرب بالبر والصلة والصدقة لما في ذلك من النفع المتعدي؟

الأفضل : ما اختاره النبي (صلى الله عليه وسلم)، وجمهور الصحابة من التقلل في الدنيا والبعد عن زهراتها، ولكن المال الذي لا يتكسبه كالميراث وسهم الغنيمة فكان جمهور الصحابة على قسمين فمنهم من أبقى ما بيده مع التقرب

⁷ صحيح البخاري، كتاب الرقاق ، باب فضل الفقر، ج 3 ، رقم الحديث 6447 ، ص 236 ، طرفه : 5091 .

⁸ سورة الأنبياء ، آية : 35 .

⁹ سورة الإسراء ، آية : 29 .

¹⁰ -انظر فتح الباري ج 11 ، ص 310 ، وعمدة القاري ، ج 23 ، ص 84 .

أيهما أفضل الغني أم الفقر ؟

ذهب جمهور الصوفية إلى ترجيح الفقير الصابر، لأن مدار الطريق على تهذيب النفس ورياضيتها وفتنة الغنى أشد من فتنة الفقر .

= الشافعية : الغني الشاكر أفضل

قال أبو علي الدقاق شيخ أبي القاسم القشيري : الغنى أفضل من الفقر، لأن الغنى صفة الخالق والفقر صفة المخلوق وصفة الحق أفضل من صفة

الخلق واستحسنه جماعة من الكبار

مردود : لأن النزاع ليس في ذات الصفتين وإنما في عوارضهما .

الطبري : لا شك أن محنة الصابر أشد من محنة الشاكر .

مطرف بن عبد الله : لأن أعاني فأشكر أحب إلي من أن ابتلى فأصبر .

= وقد طبع الآدمي على قلة البر .

الرد : من لا شيء له الأولى في حقه أن يتكسب للصون عن ذل السؤال

عن أحمد : أجرة التعليم والتعلم أحب إلي من الجلوس لانتظار ما في أيدي الناس .

" وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل " ولا يتم ذلك إلا بالمال .

صفاء حمدي محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

إلى الله بالبر والصلة والمواساة مع الاتصاف بغنى النفس، ومنهم من استمر على ما كان عليه قبل ذلك فكان لا يبقى شيئاً مما فتح عليه به وهم قليل بالنسبة للطائفة الأخرى⁽¹¹⁾ .

فالمتمأل للحديث يجد التفضيل هنا ليس للغنى والفقير بل بسبب التقوى، وهذا ما حاول النبي (صلى الله عليه وسلم) إثباته للصحابة بسرد الحجج في تسلسل حجاجي مستخدماً الاستفهام لإثبات قضيته، فنراه أتى بالمثل المعارض لقضيته التي يريدها، حتي يثبت قضيته، فعندما نريد أن نثبت شدة البياض نضع بجواره السواد حتي نستشعر الفرق، وهو ما قام به النبي (صلى الله عليه وسلم) هنا ، بأن يثبت قضيته عن طريق وضع المقابل بجوار المقبول حتي يظهر للمتلقي درجة قبوله، فجاء بالوجه المقابل وهو عرض رجل من أشرف القوم ولكن لا يتقي الله، مستفهماً المتلقين حتي يقفوا هم بانفسهم على صفاته، فقال (مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا ؟) ، فعددوا صفاته، بأنه خير قومه، ثم انتظر من يحمل عكس صفاته، وسرد حجته الثانية دون أن يصرح بالنتيجة، ولما مر الرجل الفقير التقى، عاد. بالسؤال مرة أخرى قائلاً (مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا ؟) ، فردوا فقير، وإن خطب لا ينكح ، وإن شُفَع لا يُشْفَع، وإن قال لا يُسْمَع لقوله، وهنا بعد تسلسل الحجج يخرج بنا إلى النتيجة وهي (هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا) .

ليجعل التقوى هي المعيار الذي يُقاس عليه التفضيل، وليس الغنى والفقير، مستخدماً الحجاج الاستدراجي، عن طريق عرض حججه في تسلسل حجاجي مستخدماً في ذلك الاستفهام ليقوم حججه به ويلفت انتباه المتلقين له لإقرار وإثبات قضية مهمة ؛ وهي ترك الدنيا والعمل للأخرة، وأن التقوى هي المعيار الحقيقي للأفضلية .

ونجد النبي (صلى الله عليه وسلم) أيضاً يثبت بعض قضايا الدين وعبادة الله والتقوى متمثلاً في الخوف منه تعالى، ليشرح ما هي التقوى، متمثلاً بقصة قصيرة ليخرج منها بمفهوم التقوى، كما نرى في حديث عُمَانَ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ رَبِيعٍ، عَنْ حُدَيْفَةَ (رضي الله عنه)، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمِ صَائِفٍ، فَفَعَلُوا بِهِ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ: مَا حَمَّاكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟ قَالَ: مَا حَمَّلَنِي إِلَّا مَخَافَتَكَ، فَغَفَرَ لَهُ" (12) .

¹¹ -انظر فتح الباري، ج 11 ص 308 ، 309 ، 310 ، 311 ، وعمدة القاري ، ج 23 ، ص 85 .

- (ما رأيك في هذا ؟) : هو خطاب لجماعة، فأجاب فنسبه لنفسه (هذا والله قري) : أي جدير وحقيق وزنا ومعنى .

(إن خطب أن ينكح) : أي تُجاب خطبته . ، و (وإن شفع أن يُشفع) : أي تُقبل شفاعته .

انظر فتح الباري، ج 11 ، ص 312

¹² -صحيح البخاري، كتاب الرقاق ، باب الخوف من الله ، ج3 ، رقم الحديث : 6480 ، ص 242 ، طرفاه : (3479 ، 3452)

صفاء حمدي محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

فالخوف من الله من لوازم الإيمان ومن المقامات العلية، فهو صفة المؤمنين فقال تعالى " إِنَّمَا تَلَكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " (13) ، وصفة العلماء فقال عز من قائل : " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " (14) ، وصفة الملائكة فقال تعالى : " يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ " (15).

وكلما كان العبد أقرب إلى ربه كان أشد له خشية من دونه ، وقد جعلها الله صفة من صفات الأنبياء فقال تعالى : " الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا " (16) ، فخوفهم أشد من المقربين لأنهم يطالبون بما لا يطالب به غيرهم فيراعون تلك المنزلة، فالعبد إن كان مستقيماً فخوفه من سوء العاقبة لقوله تعالى " يحول بين المرء وقلبه أو نقصان الدرجة بالنسبة، وإن كان مائلاً فخوفه من سوء فعله ،

وينفعه ذلك مع الندم والإقلاع فإن الخوف ينشأ من معرفة قبح الجناية والتصديق بالوعد عليها، وأن يُحرم التوبة .
 وذهب ابن جرير إلى أنه: كان الرجل مؤمناً لأنه قد أيقن بالحساب وأن السيئات يعاقب عليها، وأما ما أوصى به فلعله كان جائزاً في شرعهم ذلك لتصحيح التوبة، فقد ثبت في شرع بني إسرائيل قتلهم أنفسهم لصحة التوبة .
 وفي الحديث جواز تسمية الشيء بما قرب منه ، لأنه قال حضره الموت وإنما الذي حضره في تلك الحالة علاماته .
 فضل الأمة المحمدية لما خفف عنهم من وضع مثل هذه الأحبار ومن عليهم بالحنفية السمحة .

¹³—سورة آل عمران ، آية 175 .

¹⁴—سورة فاطر ، آية 28 .

¹⁵—سورة النحل ، آية 50 .

(فذروي) : بالتخفيف بمعنى الترك، فيقال : ذررت الملح أذره ومنه الميرورة نوع من الطيب

انظر فتح الباري، ج11 ص 353 ، وعمدة القاري ، ج 23 ، ص 111 .

(رجل ممن كان قبلكم) : من بني إسرائيل، ويقال أنه كان نباشاً

المعتزلة : غفر له لأنه تاب عند موته وندم على فعله .

المرجئة : غفر له بأصل توحيدته الذي لا تضر معه معصية .

فتحمل الرحمة والمغفرة على إرادة ترك الخلود في النار .

انظر فتح الباري، ج11 ص 352

(في يوم صائف) : أي يجز البدن لشدة حره ،

(فإن لم يبتتر عند الله ...) : من البئرة بمعنى الذخيرة والخبثية ، قال أهل اللغة : بأرت الشيء وابتأرته أبأره وابتأرته إذا خبأته، والمراد به هنا : لم يقدم

خيراً، يقال بأرت الشيء وابتأرته وابتأرتته إذا ادخرته، ومنه قيل للحنفرة والبئر . انظر ج11 ، ص 353 ، وعمدة القاري ، ج 23 ، ص 112 .

¹⁶—سورة الأحزاب ، آية 39 .

(—فما تلافاه أن رحمه) : أي تداركه، وما موصولة أي الذي تلافاه هو الرحمة، أو نافية وصيغة الاستثناء محذوفة، أو الضمير في تلافاه لعمل الرجل

عظم قدرة الله تعالى أن جمع جسد المذكور بعد أن تفرق ذلك التفريق الشديد (17) .

يريد النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يعلم المسمتعين الخوف من الله ولكنه فعل ذلك عن الحكي عن شخص آخر وأن الخوف من علامات الإيمان، لذلك غفر الله للرجل بسبب خوفه من الله فالحكي مع الاستفهام يؤدي إلى جذب الانتباه وتجديد الطاقة والقدرة للاستماع وعدم صرف الذهن بعيدا عنه بسبب الحكي لذلك استفهم في وسط الحكي ولم يخبر بغفران الله له مباشرة وخاصة عند النتيجة المرجوة من القصة حتي يجذب انتباههم له وللنتيجة المرادة والمرجوة ، مستخدما الحجاج الاستدراجي ، عن طريق عرض حججه في تسلسل حجاجي ، مستخدماً الاستفهام الحجاجي، فقد قدم الحجة الأولى ، وهي سوء الظن بالعمل بقوله : (كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ) ، ثم أضاف الحجة الثانية وهي علامة خوفه بقوله : (إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمِ صَائِفٍ ، فَفَعَلُوا بِهِ) ، ثم أتى بحجة ثالثة تُصرح بخوفه، ليدلل بأكثر من حجة على خوف الرجل من الله باستفهامه تعالى على لسان النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟) رغم علمه بما عمله على فعل هذا، ويؤكداه مرة ثانية بحجة مختلفة، تؤدي نفس النتيجة وهي الخوف من الله، برد الرجل عليه (مَا حَمَلَنِي إِلَّا مَخَافَتُكَ) ، ثم يصرح بالنتيجة وهي (فَغَفَرَ لَهُ) ، فقد نرى كيف تسلسلت الحجج لإثبات الخوف من الله، حتي يصل إلى النتيجة المرادة وهي الغفران، فالخوف من الله كافٍ لهذه المغفرة، لأنها صفة المؤمنين به، فقد أثبت الرجل بخوفه هذا شدة إيمانه بالله تعالى .

كما نجد النبي (صلى الله عليه وسلم) يثبت قضية أخرى مهمة كقضية الوصية المشروعة ، ومقدارها الثلث بالحجاج الاستدراجي مستعينا بالاستفهام في إثبات قضيته، فقد روى البخاري في صحيحه عن موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرنا ابن شهاب عن عامر بن سعد أن أباه قال عاذني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع من شكوى أشفيت منه على الموت فقلت يا رسول الله بلغ بي ما ترى من الوجع وأنا نو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة أفأتصدق بثلثي مالي قال لا قلت فبشطره قال الثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكفون الناس وإنك لن تتفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت حتى ما تجعل في في امرأتك قلت آخلف بعد أصحابي قال إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا ازدت درجة ورفعة ولعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم لكن البائس سعد بن خولة قال سعد رثي له النبي صلى الله عليه وسلم) من أن توفي بمكة " (18) .

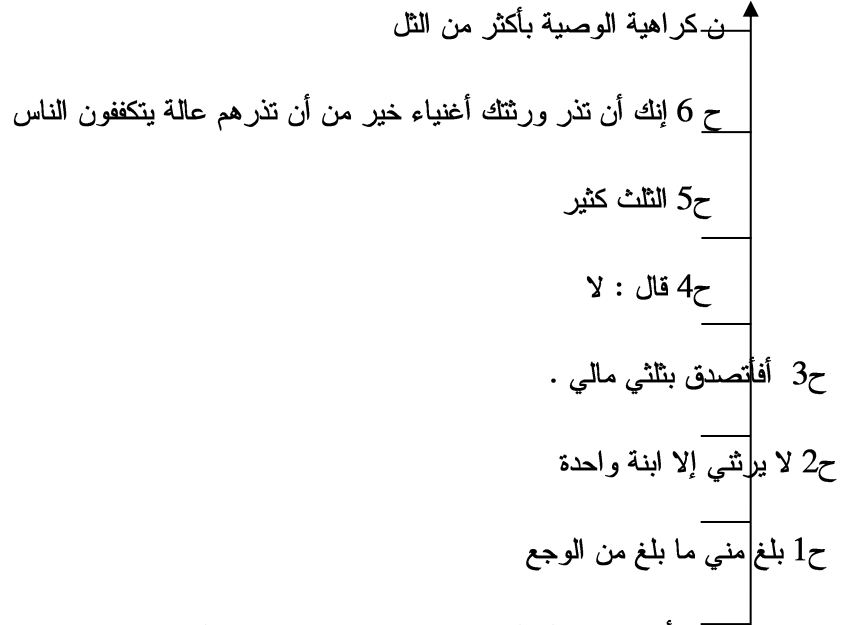
فالمتمأل للحديث يجد سعدا استهل كلامه بسرد وقائع وأحداث موجزة عن وقت الشروع بحكم جواز الوصية، بسرد الحدث، من زيارة الرسول (صلى الله عليه وسلم) له في مرضه، وطلبه بتحديد مقدار الوصية؛ وسبب الحديث (مرضه

¹⁷ - انظر فتح الباري، ج 11 ص 355 .

¹⁸ - صحيح البخاري، كتاب الدعوات ، باب الدعاء برفع الوباء والوجع ، ج 3 ، رقم الحديث : 6373 ، ص 219 .

(، وذكر الشخصية الفاعلة والزمان أثناء حجة الوداع والمكان في بيت سعد، فهذا السرد القصصي يعد من أهم عناصر الخطاب الحجاجي، فهو يمثل حجة في ذاته، ثم بدأ في الإفصاح عن الحجة الثانية بقوله (أفأتصدق بثلثي مالي ؟) مستخدماً الاستفهام ليلفت انتباه النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهمية الموضوع ، قال : (لا)، أداة النهي هنا للكرهية، ثم قال (فبشطره؟) بأداة استفهام ضمنية لقرب النبي (صلى الله عليه وسلم) منه، فأجابه: (الثلث كثير)، حتى يبين أن الزيادة على الثلث مكروه، ليس بسنة ولا مباح، ثم صرح النبي بالحكمة بتحديد مقدارها بالثلث وهي (إنك أن تذر وراثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس)، فقد قرر النبي (صلى الله عليه وسلم) قضيةه بإثبات الثلث للوصية مع كراهية الوصية بأكثر من الثلث ، في تسلسل حجاجي، وقد سلسل حججه حتى يبين كراهية الوصية بأكثر من الثلث، وهذا التسلسل في عرض الحجج يُسمى بنظرية السلالم الحجاجية وهي : (عرض الحجج بحيث تكون متفاوتة في درجة قوتها، إذ تشكل سلماً ينطلق من أضعف حجة حتى يصل إلى أقواها، لذلك سُميت بالسالام الحجاجية، وقد تكون النتيجة ضمنية، وقد تكون صريحة) (19) .

وقد نجد هنا النتيجة الصريحة، مثل : التصريح بالثلث كمقدار الوصية الواجبة، وكراهة غيره من خلال السياق، ونهي النبي (صلى الله عليه وسلم) لسعد عن النصف .



ونراه أيضا يستعمل الحجاج الاستدراجي في قضية الكفارة، ومتى تجب على الغني والفقير؟ ، وهل يجوز التصدق بها على أهله؟ ، مستخدماً الاستفهام الحجاجي لإقرار هذه القضايا، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله

¹⁹ -ديكرو السلالم الحجاجية (Lisechelles argumentation) منشورات مينسوي (editions desminuif) باريس ، 1980 م .

على الرجل ليجذب انتباه المستمعين إلى وجوب الكفارة، وعندما رد الرجل بالنفي، عرض عليه نوع الدرجة الثانية من الكفارة، وهي صيام شهرين متتابعين، والاستفهام هنا للتخيير بين القدرة على الصيام وعدم القدرة عليه، لتكون حجتين على وجوب الكفارة، ثم يقر قضيته الثانية وهي (فيمن لا يجد ما يكفر به ولا يقدر على الصيام هل يسقط عنه أو يبقى في ذمته ؟)، والحجة عليه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما أتاه عرق فيه تمر، أعطاه للرجل حتى يقضي كفارته، وبذلك أقر (صلى الله عليه وسلم) بعدم سقوط الكفارة عنه، ثم يثبت الحديث قضية أخرى وهي قضية (جواز التصدق بالكفارة على أهل بيت المؤد لها)، والحجة على ذلك قول الرجل مستقهماً (على أفقر مني ؟) (فضحك النبي (صلى الله عليه وسلم) وسكوته يقر بالموافقة على إنفاق مال الصدقة والكفارة على أهل البيت إن كانوا في حاجة إليها .

هذا الحديث الذي نحن بصدده يعرض لنا من خلال الحجاج الاستدراجي نوعاً جديداً، فهو لم تتسلسل حججه لإثبات قضية؛ بل تسلسلت القضايا، وكانت كل قضية بحججها، حجة للقضية التي تليها، فقد رأينا القضية الأولى، وهي وجوب الكفارة، استوجبت القضية التي تليها، وهي وجوب الكفارة على الغني وفقير، ولا تسقط للفقر، ثم قضية جواز خروج الكفارة على أهل البيت، إن كانوا أهلاً لها أو من الفقراء .

فقد ظهر الاستدراج الحجاجي في حجج كل قضية على حدة، ونجده جلياً في تسلسل القضايا، متخذاً كل قضية حجة ودليلاً على القضية التي تليها، ويأتي استدراج حجاجي أيضاً عند إقراره (صلى الله عليه وسلم) حرمة الدماء والأموال والأعراض، فقد روى البخاري (رحمه الله عن محمد بن عبد الله قال : حدثنا عاصم بن علي حدثنا عاصم بن محمد عن واقد بن محمد سمعت أبي قال قال عبد الله : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حجة الوداع : ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمة ؟، قالوا : ألا شهرنا هذا ؟، قال : ألا أي بلد تعلمونه أعظم حرمة ؟، قالوا : ألا بلدنا هذا، قال : ألا أي يوم تعلمونه أعظم حرمة ؟، قالوا : ألا يومنا هذا ؟ قال : فإن الله تبارك وتعالى قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم ، هذا ألا هل بلغت ؟ ثلاثاً كل ذلك يجيبونه: ألا نعم، قال : ويحكم - أو ويلكم - لا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض⁽²⁴⁾ .

فالمتمثل للحديث يجد النبي (صلى الله عليه وسلم) استعمل الإشارات الاجتماعية وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى نوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية أم غير رسمية؛ مثل أسئلة عن الصحة والحال التي تفيد التقريب بين الطرفين، ولتحقيق مبدأ التأدب مثل تحدث الطالب مع أستاذه خارج المحاضرة، فيقول أيمن

²⁴-صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد أو حق، ج 3، رقم الحديث : 6785، ص 305، أطرافه : (1742، 4403، 6043، 6166)

= بداية خروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) لحجة الوداع : يوم الخميس الموافق 6 من ذي القعدة سنة 10 للهجرة ثماراً .

(ألا أي شهر تعلمونه ؟) : ألا حرف افتتاح للتبنيح لما يقال

(أي يوم تعلمونه ...) : يعارضه أن يوم عرفة أعظم الأيام وأجابه الكرمانى بأن المراد باليوم الوقت الذي تؤدي فيه المناسك ويحتمل أن يختص يوم

النحر بمزيد الحرمة، (كتاب العلم) انظر فتح الباري، ج 12 ص 97، وعمدة القاري، ج 23، ص 426 .

صفاء حمدي محمد علي (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

أن تمنحني دقيقة من وقتك ، أريد أن أستشيرك في مسألة ؟⁽²⁵⁾ ، وخطبة الوداع ظهر بها كثير من هذه الإشارات الاجتماعية، فالعلاقة بين النبي (صلى الله عليه وسلم) والمتلقين تشير إلى علاقة تقارب وحب .

كما أن الافتراض المسبق : مستمد من المعرفة العامة وسياق الحال، لا يُصرح بها المتكلمون فتشكل خلفية التبليغ الضرورية لنجاح العملية (التبليغية) ، مثال : كيف حال زوجتك أو أولادك ؟ ، والصحابة كان لديهم معرفة مسبقة بالشهور وأسمائها وكل المعلومات التي عرضها النبي في الخطبة مما ساعد على نجاح التبليغ وتأكيد الرسالة، وتسهيل تأكيد المعلومات المطروحة ، في سياق حاجي استفهامي تدريجي، فقد استفهم المتلقين عن حرمة الشهر ، ثم البلد، ثم اليوم، ليعلمهم ما هي الحرمة؟ ، ويلفت انتباههم لما سيحرمه، وأثار ما يسميه جرياس بالاستلزام الحواري، فقد يرى جرياس أن الاستلزام نوعان⁽²⁶⁾ :

الأول : عرفي ، والآخر حوارى ، (مبدأ التعاون) أي أن الحوار بين البشر يجري وفق ضوابط كما تحكمه قواعد يدركها كل من المخاطب والمتكلم.

مثال : حين يسأل زوج زوجته أين مفاتيح السيارة ؟ فتجيب : على الطاولة .

وهو المستعمل هنا في الخطبة، فقد أثار النبي (صلى الله عليه وسلم) السؤال عن حرمة الشهر، والرد من المتلقين، ثم السؤال عن حرمة البلد، والرد منهم، ثم حرمة اليوم، وانتظر الرد منهم في أسلوب حوارى استلزامى استدراجي، يستدرج الحجج بحرمتهم حتى يقيس عليهم حرمة ثلاثة آخرين، هم حرمة الدماء والمال والأعراض بدون وجه حق، مثل حرمة اليوم والبلد والشهر، ونراه يرتب حججه (صلى الله عليه وسلم) بأسلوب بلاغي ، فقد بدأ بالسؤال عن حرمة الشهر ثم البلد فاليوم، وعاد بطريق عكسي عند تحريم المال والدم والأعراض فقال (كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا) ، فقد جاء بحجة تحريم اليوم والشهر والبلد ليقس عليها حجة تحريم الدم والمال والأعراض، ليصل إلى النتيجة المرادة وهي التسليم بتحريم الدماء والمال والعرض بدون وجه حق، فقد رتب حججه في تسلسل منطقي إيداعي ليصل بالمتلقين إلى النتيجة دون رد منهم أو رفض وباقتناع .

ونرى الحجج الاستدراجي يطبقه الله سبحانه وتعالى مع أهل الجنة يوم القيامة، ليعلمنا الله أن الدين إقناع واقتناع، وأن تسلسل الحجج وتدرجها ، أسلوب حججى يعين الداعي على الدعوة، وأسلوب حوارى يساعد الداعي على اقناع المدعون بطريق سهل ، وبسيط ، فنراه تدرج في حججه في قضية البعث بعد الموت، والجنة والنار ودوام المجازاة، كما نرى في صحيح البخاري، عن مُعَاذُ بْنُ أَسَدٍ قَالَ ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ ، أَخْبَرَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، عَنْ عَطَاءِ

²⁵ ناغش عيدة ، أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين ، دراسة نحوية بلاغية تداولية ، ط 1 ، 2012 م .

²⁶ محمد طروسي ، النظرية الحججية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية ، دار النشر للثقافة ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ،

بْنِ يَسَارٍ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) " : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : " يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ " ، فَيَقُولُونَ : لَنَبِيِّكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ : " هَلْ رَضِيْتُمْ ؟ " ، فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟! ، وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ " : أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ " ، قَالُوا : يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ ، فَيَقُولُ : " أَهْلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أُسْخِطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا " (27) .

فقد جاء الحديث القدسي دليلاً على قوله تعالى : " خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا " رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ " ذَلِكَ لِمْنْ حَشِي رِبَّةُ " (28) ، فأخراج العباد من العدم إلى الوجود من تفضله وإحسانه، وكذلك تتجيز ما وعدهم به من الجنة والنعيم من تفضله وإحسانه، وأما دوام ذلك فزيادة من فضله على المجازاة لو كانت لازمة، ومعاذ الله أن يجب عليه شيء فلما كانت المجازاة لا تزيد في العادة على المدة ومدة الدنيا متناهية جاز ان تنتهي مدة المجازاة فتفضل عليهم بالدوام فارتفع الإشكال جملة . فقوله (أبدًا) أي ليس له نهاية. وخالدين الخلود عام وأحياناً العرب تقول خالدين؛ لا يعنون فيها الأبد، وإنما محدودة بفترة طويلة (ما دامت السموات والأرض). الأبد يعني بلا انقطاع لا ينتهي.

وقيل أن الرضا أفضل من اللقاء وهو مشكل وأجيب بأنه ليس في الخبر أن الرضا أفضل من كل شيء وإنما فيه أن الرضا من العطاء، وعلى تقدير التسليم فاللقاء مستلزم للرضا فهو من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم كذا نقل الكرمانى . ويحتمل أن يكون المراد حصول أنواع الرضوان ومن جملتها اللقاء فلا إشكال .

إضافة المنزل لسكانه، وإن لم يكن في الأصل له فإن الجنة ملك الله عز وجل، وقد أضافها لسكانها بقوله يا أهل الجنة، كما قال أبو محمد بن أبي جمره : والحكمة في ذكر دوام رضاه بعد الاستقرار أنه لو أخبر به قبل الاستقرار لكان خيراً من باب علم اليقين فأخبر به بعد الاستقرار ليكون من باب عين اليقين، لقوله تعالى " فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (29) .

كما أنه ينبغي ألا يخاطب أحد بشيء حتى يكون عنده ما يُستدل به عليه ولو على بعضه، وكذا ينبغي للمرء أن لا يأخذ من الأمور إلا قدر ما يحمله، وفيه الأدب في السؤال : وأي شيء أفضل من ذلك ؟

لأنهم لم يعلموا شيئاً أفضل مما هم فيه فاستفهموا عما لا علم لهم به، وفيه أن الخير كله والفضل إنما هو في رضا الله سبحانه وتعالى ، وكل شيء ما عداه وإن اختلفت أنواعه فهو من أثره، وفيه دليل على رضا كل أهل الجنة بحاله مع اختلاف منازلهم وتنوع درجاتهم لأن الكل أجابوا بلفظ واحد وهو " أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك " (30) .

²⁷ صحيح البخاري، كتاب التوحيد ، باب كلام الرب مع أهل الجنة، ج 3 ، رقم الحديث : 7518 ، ص 479 ، طرفه : 6549.

²⁸ سورة البينة ، آية 8

²⁹ سورة السجدة ، آية 17

³⁰ (انظر فتح الباري، ج 13 ، ص 553)

" إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى " (2) فنفي الشبع لا يوجب الجوع لأن بينهما واسطة وهي الكفاية، وأكل أهل الجنة للتعميم والاستلذاذ لا عن الجوع، كما أن الجنس الآدمي طُبع على طلب الازدياد إلا من شاء الله تعالى .

فقد نجد التسلسل الحجاجي، في هذا الحديث بأن يأتي بالحجة مثل قوله : (هل رضيتم؟)، وهو يعلم تفضله عليهم، ثم يأتي بالرد منهم بقولهم " وما لنا لا نرضى ؟ " استفهام استنكاري يعيد التعجب والدهشة للأمر، مما يدل على مدى جمال الجنة، ولكن النفس طُبعَت على الطمع، فيطمعون فيما هو أفضل، فيقولون (يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟) استفهام استنكاري أيضا يفيد التعجب والدهشة، والأفضل هو رضوانه تعالى على أهل الجنة ، فالحديث يقرر قضية الإيمان بالبعث بعد الموت، الجنة والنار ، والحساب وأن رضا الله تعالى أفضل من الجنة بما فيها من جمال لا عين رأت ولا أذن سمعت، حتي يعلمنا أن السعي وراء رضا الله نفع في الدنيا والآخرة، وأنه أفضل مكسب للمؤمنين، فنجد النبي (صلى الله عليه وسلم) يُثبت قضية البعث، والحساب، والجنة والنار، فبعد إقرار المتلقين الإيمان بيوم الحساب، للرد على المنكر في أول الحوار، يزيد من إيمانهم هذا ليمثل حجة إلي الإيمان بالجنة والحساب .

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَمْرٍو بْنِ شَرْحَبِيلٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَكَذَلِكَ خَشِيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَصْنِيفَهَا: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} (3)

(أن تقتل ولدك) قال الكرمانى : لا مفهوم له لأن القتل مطلقاً أعظم ولكن لا يمتنع أن يكون الذنب أعظم من غيره لأنه جمع مع القتل ضعف الاعتقاد في أن الله هو الرزاق . (4) .

لا يجب إعطاء المعلومات دفعة واحدة إذا كان المخاطب خالي الذهن فما بالنا إن كان الأمر مرتبطاً بهدف تغيير اعتقاد.

المبحث الثاني : الاستفهام الاستدلالي (الاستباطي) وأثره الحجاجي

يرتبط الاستدلال بوجه عام بالحجاج ؛ فهو يمثل سياقه العقلي وتطوره المنطقي الذي يقوم على دلالة الحجة ومنطقها ؛ يرجع ذلك إلى أن : " النص الحجاجي نص قائم على البرهنة فيكون بناؤه على نظام معين تترايط فيه العناصر وفق نسق تفاعلي وتهدف إلى غاية مشتركة ، ومفتاح هذا النظام لساني بالأساس فإذا أعدنا النص الحجاجي إلى أبسط صورة وجدناه ترتيباً عقلياً للعناصر اللغوية ، ترتيباً يستجيب لنية الإقناع " (31) .

فالحجاج في أصله يعتمد على " الأمثلة والحجج وكل تقنيات الإقناع مروراً بأبلغ إحصاء، وأوضح استدلال وصولاً إلى لطف فكرة وأنفذا " (32).

فهو مصطلح يدل على المحاجة ويوحى بأن هناك طرفين حاضرين يتنازعان الرأي وليس المقصود من المصطلح ، بل إن المتكلم الحاضر واحد أغلب الأحيان ، يسعى إلى إقناع مخاطب متخيل بموقف أو فكرة والتأثير عليه فالحجاج في أصله : " عملية اتصالية تعتمد الحجة المنطقية بالأساس وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم " (33) .

وقد أطلق طه عبد الرحمن الاستدلال الكلامي على القياس في كتابه " في أصول الحوار وتجديد علم الكلام " ، فالقياس عنده " فعالية استدلالية خطابية " (34) .

وقد أقر النبي (صلى الله عليه وسلم) بعض قضاياها باستخدام الاستدلال عن طريق عرض الحجج في سياق منطقي مرتب ليستنتج منه النتيجة التي يتمناها، كما سنرى في حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قال أناس يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله : هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال: فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ ، قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو منافقوها شك إبراهيم فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاءنا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول : أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم وفي جهنم كلاب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال

فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بقي بعمله، أو الموثق بعمله، ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه، ثم يتجلى حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة، فينبنون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل ثم يفرغ الله من

³² - المصدر نفسه، ص 27 .

³³ - جميل عبد المجيد ، البلاغة والاتصال ، ص 105 .

³⁴ - طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 98 .

صفاء حمدي محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

القضاء بين العباد، ... إلخ " (35) .
فالتأمل للحديث يصل إلى أن الرؤية هنا في الآخرة، كما ذكر صاحب فتح الباري، وصاحب عمدة القاري (هل نرى ربنا يوم القيامة؟) : يوم القيامة إشارة إلى أن السؤال لم يقع عن الرؤية في الدنيا.

هذا السؤال وقع على سبب وهو ذكر الحشر والقول " لتتبع كل أمة ما كانت تعبد " وقول المسلمين " هذا مكاننا حتي نرى ربنا قالوا وهل نراه ؟ " .

وقيل لا يحجب بعضكم بعضاً عن الرؤية فيضرب به، وحكى الجوهرى : ضربني فلان إذا دنا مني دنواً شديداً . (36)

أي ترونه في كل جهاتكم وهو متعال عن الجهة ، والتشبيه يرونه القمر لتعين الرؤية دون تشبيه المرئي سبحانه وتعالى، ذهب الزين بن المنير إلى أن تخصيص الشمس والقمر بالذكر مع أن رؤية السماء بغير سحاب اكبر، وأعظم خلقاً من مجرد الشمس والقمر لما له من عظيم النور والضيء بحيث صار التشبيه بهما فيمن يوصف بالجمال والكمال شائعاً في الاستعمال .

وذهب ابن الأثير إلى أنه : قد يتخيل بعض الناس أن الكاف كاف التشبيه للمرئي وهو غلط وإنما هي كاف التشبيه للرؤية وهو فعل الرائي .

كما يرى أبو محمد بن أبي جمرة : في الابتداء بذكر القمر قبل الشمس متابعة للخليل؛ فكما أمر باتباعه في الملة اتبعه في الدليل، وعطف الشمس على القمر؛ لأن القمر لا يدرك وصفه الأعمى حساً بل تقليداً، والشمس يدركها الأعمى حساً بوجود حرها إذا قابلها وقت الظهيرة مثلاً فحسن التأكيد بها .

³⁵ -صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، ج 3 ، رقم الحديث : 6573 ، ص 260 ، 261 ، طرفه : 806 .
(تُضارون) على صيغة المفاعلة من الضر وأصله تضاررون أي لا تضرون أحدكم بمنازعة ولا مجادلة ولا مضايقة، من الضير وهو لغة في الضر أي لا يخالف بعض بعضاً فيكذبه وينازعه فيضربه بذلك ، يقال ضاره يضيره، والمعنى لا تضايقون أي تراحمون .
³⁶ - (انظر فتح الباري، ج 11 ص 507، ص 508 ، وعمدة القاري ، ج 23 ، 203 ، 204) .
ابن الأثير : فالمراد المضارة بإزدحام ، وقال النووي : روي " تضامون " من الضم والمراد المشقة والتعب ، " لا تضامون أو تضاهون " : والشك في فضل صلاة الفجر، معنى الضيم الغلبة على الحق والاستبداد به أي لا يظلم بعضكم بعضاً .
" ترونه كذلك " المراد تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح وزوال الشك ورفع المشقة والاختلاف .
(ومن كان يعبد الطواغيت) : الطواغيت جمع طاغوت وهو الشيطان والصنم ويكون جمعاً مفرداً ومؤنثاً .
والمراد : أنها رؤية مزاح عنها الشك مثل رؤيتكم القمر .
ثم يأتي بالحجة الثانية : فهل تضارون في الشمس ليس دوئها سحاب؟
ثم يأتي بالنتيجة : فإنكم ترونه كذلك .

فالتمثيل واقع في تحقيق الرؤية لا في الكيفية لأن الشمس والقمر متحيزان والحق سبحانه منزه عن ذلك .

وقيل التمثيل بالقمر؛ أنه تتيسر رؤيته للمرائي بغير تكلف، ولا تحديق يضر بالبصر، بخلاف الشمس (37) .

فدري النبي (صلى الله عليه وسلم) يثبت قضية (كيفية رؤية الله تعالى يوم القيامة) عن طريق الاستدلال الاستفهامي الاستنباطي الحجاجي ، فقد جعل ينتقل من الحجج مستخدماً الاستفهام الحجاجي ليثبت قضيته للمتلقين، فقد جاء بالحجة الأولى : هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟

وقد أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) بالقمر أولاً، ثم قوى حجته بذكر الشمس، لأن القمر يراه المبصرون، ولكن الشمس حجة أقوى فقد يراها المبصرون ويحس بها المكفوفون، فيستطيع أن يتخيلها؛ لذلك أتى بها ليقوى بها حجته الأولى ، بأسلوب استفهامي حجاجي، ينتقل فيه من الحجج إلى النتيجة .

³⁷-(انظر فتح الباري، ج 11 ص 507، ص 508، وعمدة القاري، ج 23، ص 205) .

(الصعيد) قال النووي : الصعيد الأرض الواسعة المستوية .

= (ينفذها البصر) : أي يخرقهم، ويستوعبهم، أبو عبيدة : معناه ينفذهم بصر الرحمن حتى يأتي عليهم كلهم والمراد هنا بصر الناظرين

(يجمع الله الناس) : أي يحشرهم . (انظر فتح الباري، ج 11 ص 508)

(فتدعي اليهود) : قدموا بسبب تقدم ملتهم على ملة النصارى .

(فيها مناققوها) : للأكثر، " غبرات أهل الكتاب" جمع غُبر وغُبر جمع غابر ويجمع أيضاً على أغبار وغير الشيء بقية، المراد من كان يوحد الله منهم . (أعوذ بالله منك) يحتمل أن يكون هذا الكلام صدر من المنافقين . (فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون) : في رواية مسلم " فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم " الضمير لله والمعنى فارقنا الناس في معبوداتهم ولم نصاحبهم ونحن اليوم أحوج لربنا أي محتاجون إليه النووي : أي التضرع إلى الله في كشف الشدة عنهم بأنهم لزموا طاعته وفارقوا في الدنيا من زاغ عن طاعته من أقاربهم عن حاجتهم إليهم في معاشهم ومصالح دنياهم

وذكر الأمانة والرحم لعظمهما وفخامة ما يلزم العباد من رعاية حقهما يوقفان هناك للأمين والخائن والمواصل والقاطع فيحاجان عن الحق ويشهدان على المبطل . (انظر فتح الباري، ج 11 ص 513 ، 514)

وجاء عن الفضيل بن عياض قال : " بلغنا أن الصراط مسيرة خمسة عشر ألف سنة، خمسة آلاف صعود وخمسة آلاف هبوط وخمسة آلاف مستوي أدق من الشعرة وأحد من السيف على متن جهنم لا يجوز عليه إلا ضامر مهزول من خشية الله " وهذا الرأي مردود 2-(انظر فتح الباري، ج 11، ص 514)

عن سعيد بن أبي هلال قال : " بلغنا أن الصراط أدق من الشعر على بعض الناس ولبعض الناس مثل الوادي الواسع " . - انظر فتح الباري، ج 11، ص 515 ،

(مثل شوك السعدان) : جمع سعدانة وهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه قالوا : مرعى ولا كالسعدان .

(وبه كلاليب) : الضمير للصراط، وهي جمع كَلُوب ،

(غير أنها لا يعلم عظمها إلا الله) : أي الشوكة والهاء ضمير الشأن .

(منهم الموبق بعمله) : الموبق : الهلاك . انظر فتح الباري، ج 11، ص 516

صفاء حمدي محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

ثم ينتقل إلى إثبات قضية أخرى، وهي (قضية ثبوت الرؤية) .

فراه يضع مقدمة عامة : : من كان يعبد شيئاً فليتبعه .

ثم يأتي بمقدمات صغرى : فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت.

ثم يأتي بالنتيجة : يأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول : أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه .

فابن أبي جمرة يرى أن : في التنصيص على نكر الشمس والقمر مع دخولهما فيمن عبّد من دون الله والتنويه بذكرهما لعظم خلقهما

وذهب الطبري إلى أن : كل طاغ طغى على اله يتعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبّد وإما بطاعة ممن عبّد إنساناً كان أو شيطاناً أو حيواناً أو جماداً ، فيرى أن إتباعهم لهم حينئذ باستمرارهم على الاعتقاد فيهم وممكن أن تكون المتابعة بسياقهم إلى النار قهراً ، فيقول : " فيذهب أصحاب الصليب، وأصحاب كل الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم " : يشير هذا الحديث إلى أن كل من كان يُعبد ممن يرضى

بذلك كالملائكة أو الجماد أو الحيوان داخلون في ذلك وأما من كان لا يرضى بذلك كالملائكة والمسيح مثلاً فلا " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم " (38) .

وقوله (وتبقى هذه الأمة) : يرى ابن أبي جمرة أيضاً أن المراد : أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، أو على العموم فيدخل فيه جميع أهل التوحيد حتى من الجن؛ الدليل : قوله (صلى الله عليه وسلم) : " أنه يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر، قلت : ويؤخذ أيضاً من قوله : " فأكون أول من يجيز " ؛ أي الأنبياء بعده يجيزون أممهم .

(كنا نعبد عزير بن الله) : المتصف بذلك بعض اليهود وأكثرهم ينكرون ذلك، الرد : خصوص هذا الخطاب بمن كان متصفاً بذلك، ومن عداهم يكون جوابهم نكر من كفروا به، كما وقع في النصارى فإن منهم من أجاب بالمسيح ابن الله مع أن فيهم من كان بزعمه يعبد الله وحده وهم الاتحاديّة الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم .

(فيقال لهم كذبتم) : الإنكار ليس لأنهم عبدوا وإنما الإنكار أن المسيح ابن الله .

والرد : فيه نفي الازم وهو كونه ابن الله ليلزم نفي الملزوم وهو عبادة ابن الله .

³⁸-(انظر فتح الباري ، ج 11 ، ص 509 ، 510 ،)

صفاء حمدى محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوى)

تأخر ذكر المناققين مع المؤمنين ظناً منهم أن النفاق ينفعهم كما كانوا سظهرون في الدنيا فيميز الله المؤمنين بالغيرة والتحجيل إذ لا غرة للمناقق ولا تحجيل . (39) .

الإتيان إلى الله تعالى هو عبارة عن رؤيتهم إياه لأن العادة أن كل من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته إلا بالمجيء إليه فعبر عن الرؤية بالإثبات مجازاً، أو هو فعل من أفعال الله يجب الإيمان به مع تنزيهه عن سمات الحدوث ، وربما يأتيهم بعض ملائكة الله ، ويحتمل أن يأتيهم على صورة المخلوقين ليختبرهم بذلك .

والمراد إخراج الموحدين وإدخالهم الجنة واستقرار أهل النار في النار، وحاصله أن المعنى يفرغ الله أي من القضاء بعذاب من يفرغ عذابه ومن لا يفرغ فيكون إطلاق الفراغ بطريق المقابلة وإن لم يذكر لفظها .

فيرى ابن أبي جمرة أن : معناه وصل الوقت الذي سبق في علم الله انه يرحمهم . (40)

قوله (ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله) : قال القرطبي : لم يذكر الرسالة إما لأنها لما تلازما في النطق غالباً وشرطاً النفي بذكر الأولى، أو لأن الكلام في حق جميع المؤمنين من هذه الأمة وغيرها، ولو ذكرت الرسالة لكثير تعداد الرسل، قلت : الأول أولى، ويعكز على الثاني أنه يكتبي بلفظ جامع كأن يقول مثلاً ونؤمن برسله، وقد تمسك بظاهره بعض المبتدعة ممن زعم أن من وحد الله من أهل الكتاب يخرج من النار ولو لم يؤمن بغير من أرسل إليه، وهو قول باطل، فإن من حجة الرسالة الإيمان بالله ومن كذب الله لم يوحده .

فعن الحسن البصري عن أنس " فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، قال : ليس ذلك لك، ولكن وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي وكبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله " (2) .

وعلق الطيبي : هذا يؤذن بأن كل ما قدر قبل ذلك بمقدار شعيرة، ثم حبة، ثم خردلة، ثم ذرة غير الإيمان الذي يعبر به عن التصديق والإقرار، بل هو ما يوجد في قلوب المؤمنين من ثمرة الإيمان، وهو على وجهين : أحدهما : ازدياد اليقين وطمأنينة النفس، لأن تضافر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لعدمه الثاني : أن يراد العمل وأن الإيمان يزيد وينقص بالعمل .

فيرى الطيبي : إذا فسرنا ما يختص بالله بالتصديق المجرد عن الثمرة وما يختص برسوله هو الإيمان مع الثمرة من ازدياد اليقين أو العمل الصالح حصل الجمع، ويحتمل أن المراد بقوله ليس ذلك لك مباشرة الإخراج لا أصل الشفاعة (41)

³⁹ - انظر فتح الباري، ج 11 ص 516

(أمر الملائكة أن يخرجوهم) أي الذين يباشرون الإخراج هم الملائكة .

⁴⁰ - انظر فتح الباري، ج 11 ص 517

⁴¹ انظر فتح الباري، ج 11 ص 518 ، 519

صفاء حمدي محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

فخلص مما سبق ثبوت النبي (صلى الله عليه وسلم) كيفية الرؤية، ثم ثبوت الرؤية، وهو الرد على سؤالهم، فقد سألوا عن ثبوت الرؤية، ليس الكيفية، لذلك بدأ النبي أولاً بكيفية الرؤية لتنزيه الله – سبحانه وتعالى – عن إعمال الفكر في الكيفية، لأن هذا الأمر من الغيبات، ومن الأمور التي يضعف العقل البشري عن استيعابه بمفرده، وحتى لا يخوض المتلقون بخيالهم البشري في هذه الغيبات، يحاول النبي (صلى الله عليه وسلم) تثبيت عقيدتهم في ثبوت قضية كيفية الرؤية (، مستخدماً الاستنباط الحجاجي الاستفهامي، ثم يرجع إلى سؤالهم وهو ثبوت الرؤية (وهل نرى ربنا ؟) مستخدماً أيضاً الاستفهام الاستنباطي ؛ الذي عن طريقه يستعرض الحجج التي تؤدي به إلى النتيجة المستنبطة من حججه ليقر قضيتها، مستخدماً السلم الحجاجي، كما يلي :

النتيجة : ثم يأتي بالنتيجة : يأتيهم الله في صورته التي يعرفون،

فيقول : أنا ربكم، فيقولون: أن ربنا، فيتبعونه .

مقدمات صغرى : فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت.

المقدمة العامة : : من كان يعبد شيئاً فليتبعه .

ونجد الاستفهام الاستنباطي الحجاجي أيضاً عند ثبوت التعريض بالقذف في حديث إسماعيل الذي قال :حدثني مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه أعرابي فقال يا رسول الله : إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم، قال : ما ألوانها ؟ ، قال : حمر، قال : هل فيها من أورك ؟ ، قال : نعم ، قال : فأنى كان ذلك ؟ قال : أراه عرق نزعته، قال : فلعل ابنك هذا نزعته عرق " (42) .

(باب ما جاء في التعريض) (43) : قال الراغب : هو كلام له وجهان ظاهر وباطن، فيقصد قائله الباطن ويظهر إرادة الظاهر،

⁴²صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب ما جاء في التعريض، ج3 ، حديث رقم : 6847 ، ص 320 .

⁴³فوائد الحديث عن ابن أبي جمرة :

–جواز مخاطبة الشخص بما لا تدرك حقيقته .

– جواز التعبير عن ذلك بما يفهمه، وأن الأمور التي في الآخرة لا تشبه بما في الدنيا إلا في الأسماء والأصل مع المبالغة في تفاوت الصفة والاستدلال على العلم الضروري بالنظري، وأن الكلام إذا كان محتملاً لأمرين يأتي المتكلم بشيء يتخصص به مراده عند السامع، وأن التكليف لا ينقطع إلا بالاستقرار في الجنة أو النار، وأن امتثال الأمر في الموقف يقع بالاضطرار .

صفاء حمدي محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

ويرى الشافعي أن : التعريض بالقذف لا يعطي حكم التصريح، إنما تكون الملاعة إذا قال رأيت الفاحشة .

فذهب ابن بطال إلى أن : الشافعي احتج بأن التعريض في خطبة المعتدة جائز مع تحريم التصريح بخطبتها، فدل على افتراق حكمهما، قال وأجاب القاضي إسماعيل بأن التعريض بالخطبة غير جائز؛ لأن النكاح لا يكون إلا بين اثنين، فإذا صرح بالخطبة وقع عليه

الجواب بالإيجاب أو الوعد فمنع، وإذا عرض فأفهم أن المرأة من حاجته لم يحتج إلى جواب، والتعريض بالقذف تقع من الواحد ولا يفترق إلى جواب فهو قاذف من غير أن يخفيه عن أحد فقام مقام الصريح، كذا فرق، والعكس عليه أن الجديد يدفع بالشبهة، والتعريض يحتمل الأمرين، بل عدم القذف فيه هو الظاهر وإلا لما كان تعريضاً ومن لم يكن بالحد والتعريض يقوم بالتأديب فيه لأن في التعريض أذى المسلم وقد اجتمعوا على تأديب من وجد مع امرأة أجنبية في بيت والباب مغلق عليهما، وقد ثبت عن إبراهيم النخعي أنه قال : " في التعريض عقوبة"⁽³⁾.

ف نجد مما سبق أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أثبت قضية (التعريض بالقذف) بما يُسمى بالحجاج بالمناظرة والتمثيل وهو أن المناظرة خطاب إقناعي ، هدفه التأثير في المرسل إليه لبناء موقف جديد أو تغييره ، استدعى ذلك وجود قسدين حواريين هما قصد الإدعاء وقصد الاعتراض⁽⁴⁴⁾ .

فتعتمد المناظرة على المحاجة والاستدلال والتمثيل والاستشهاد، كما نرى هنا، فقد قام النبي (صلى الله عليه وسلم) بإقامة الحجج على براءة زوجة السائل، وتحريم القذف بدون أدلة مادية، عن طريق إقرار السائل لقضية عامة، منها يستطيع أن يستنبط النتيجة التي يسعى إليها النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما يلي:

فقد جاء أولاً بثبوت قضية عامة ألا وهي نزع العرق، وهو من قوانين الوراثة، التي نادى بها دارون وعلماء الجينات الوراثة بعده بسنين ، فعد القضية بأسلوب استفهامي استنباطي بلاغي حجاجي؛ عن طريق فرض الفروض، ثم استنباط النتيجة .

الفرض الأول : هل لك من إيل ؟ قال : نعم .

- فيه فضيلة الإيمان لأنه لما تلبس به المنافق ظاهراً بقيت عليه حرمة إلى أن وقع التمييز بإطفاء النور وغير ذلك، وأن الصراط مع دفته وحدته يسع جميع المخلوقين منذ آدم إلى قيام الساعة .

انظر فتح الباري، ج 12 ص 203

3-انظرفتحالباري، ج 12 ص 203

⁴⁴انظر فتح الباري، ج 12 ص 203

2- See philippe Breton , l'argumentation dans la communication , Casbah edition ,

Alger , Janvier 1998 , P 58 .

الفرض الثاني : قال : ما ألوانها ؟ ، قال : حمر .

الفرض الثالث : قال : هل فيها من أورك ؟ ، قال : نعم .

الفرض الرابع : قال : فأنى كان ذلك ؟

النتيجة : قال : أراه عرق نزعته . قال : فلعل ابنك هذا نزعته عرق .

فجد النبي (صلى الله عليه وسلم) استعمل الحجاج الاستنباطي ليثبت قضية التعريض بالقذف، بالحجة والدليل القطعي، عن طريق المثل من خلال البيئة المحيطة بالمتلقين، ليقوم حجته عليها، وعن طريق التمثيل ؛ فالتمثيل يجعل المخاطب يبادر إلى الاقتناع .

ونجد النبي (صلى الله عليه وسلم) يحتج على قضية مشروعية القتال في الفتنة، كما جاء في حديث إسحاق بن شاهين الواسطي الذي

قال : حدثنا خالد عن بيان عن وبرة بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير قال : خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن يحدثنا حديثا حسنا قال : فبادرنا إليه رجل، فقال : يا أبا عبد الرحمن حدثنا عن القتال في الفتنة، والله يقول : " وقاتلهم حتى لا تكون فتنة " ، فقال : هل تدري ما الفتنة تكلتك أمك ؟، إنما كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك " (1) .

يريد أن يحتج بالآية على مشروعية القتال في الفتنة وأن فيها الرد على من ترك ذلك .

" تكلتك أمك " ظاهره الدعاء وقد يرد مورد الزجر كما هنا، ولكن ابن عمر يرى أن الضمير في " وقاتلهم " للكفار، فأمر المؤمنين بقتال الكافرين حتى لا يبقى أحد يُفتن عن دين الإسلام ويرتد إلى الكفر .

قال زهير بن معاوية : " وكان الدخول في دينهم فتنة، فكان الرجل يفتن عن دينه؛ إما يقتلونه، وإما يوثقونه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة " ، وقوله : " وليس كقتالكم على الملك " أي في طلب الملك، يشير إلى ما وقع بين مروان ثم عبد الملك ابنه وبين ابن الزبير وما أشبه ذلك (45)

وكان رأى ابن عمر ترك القتال في الفتنة، ولو ظهر أن إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطله .

⁴⁵ -صحيح البخاري،، كتاب الفتن، باب قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " الفتنة من قبل المشرق " ، ج3، رقم الحديث 7095 ، ص 381 .

وقيل الفتنة مختصة بما إذا علمت الباغية، فلا تُسمى فتنة، وتجب مقاتلتها حتى ترجع إلى الطاعة، وهذا قول الجمهور (46)

فقد احتج الرجل هنا على القتال في الفتنة، فقد وضع أولا المقدمة العامة لكلامه، وهي الآية الكريمة " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة "، ثم يأتي بالمقدمة الصغرى : أن ذلك كان في بداية الدعوة، فكان القتال يحد من الوقوع في الفتنة، فكان القتال يبعد عن الفتنة، فالقتال في نشر الدعوة، الذي عن طريقهما نصل إلى النتيجة وهي أنه لما كثر الإسلام ، وبذلك بطل القتل، فأصبح لا يكون فتنة، مستخدما السلم الحجاجي كما يلي :

ن : انتشار الإسلام يبطل حجة القتال

ح 2 : القتال في بداية الدعوة يحد من فتنة الدخول في دين المشركين

ح 1 : " وقابلوهم حتى لا تكون فتنة "

فقد أستتبط ابن عمر ترك القتال في الفتنة، وذلك لأن الإسلام كثر وانتشر فلا خوف من الدخول في دين المشركين، فبطلان السبب يؤدي إلى بطلان النتيجة .

ثم يثبت أن القتال على الملك والفتنة في الملك، لا تفسره الآية، فمن خلال استتباط النتيجة الأولى من خلال عرض القضية الأولى، والتي يجعلها مقدمة عامة لتحريم قتال المسلمين على الملك والفتنة في الملك، ويبعد الآية الكريمة عن فتنة الملك وأن المراد بها القتل من أجل الدين وليس من أجل الملك، كما يلي :

المقدمة العامة : الدخول في دين المشركين فتنة، فإما يقتلونه، أو يوثقونه .

المقدمة الصغرى : انتشار الإسلام في كل مكان .

مقدمة صغرى 2 : القتل في الآية للدعوة، والفتنة في الدين

مقدمة صغرى 3 : القتل في طلب الملك، يشير إلى ما وقع بين مروان ثم عبد الملك ابنه وبين ابن الزبير وما أشبه ذلك، ليس مراد الآية الكريمة

النتيجة : ترك القتال في الفتنة، ولو ظهر أن إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطله

⁴⁶-(انظر فتح الباري ج 12، ص 218)

صفاء حمدي محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

وقد ورد بصحيح البخاري، حديث به قياس حجاجي استنباطي استقهامي ظاهر جلي، لثبت للمتلقى مدى استخدام النبي (صلى الله عليه وسلم) للحجاج التفاعلي الاستنباطي يستخدمه وسيلة جادة لإقناع المتلقي بقضيته، كما ورد في حديث عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاءت امرأة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت: إن أمي نذرت أن تحج ، فماتت قبل أن تحج ، أفأحج عنها؟ ، قال: " نعم ، حجي عنها ، رأييت لو كان على أمك دين أكننت قاضيته؟ " ، قالت: نعم ، قال: فاقضوا الله الذي له ، فإن الله أحق بالوفاء" (47) .

فقد ذهب ابن حجر إلى أن مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل، أي أن الذي ورد عنه من التمثيل إنما هو تشبيهه أصل بأصل، والمشبه أخفى عند السائل من المشبه به، وفائدة التشبيه التقريب لفهم السائل . ويرى ابن بطال أن : التشبيه والتمثيل هو القياس عند العرب .

فالحكم على قضية يتم أولاً بالأخذ مما في الكتاب، فإن لم يكن فبالقياس على ما في السنة، فإن لم يكن فبالقياس على ما اتفق عليه السلف وإجماع الناس ولم يعرف له مخالف (48) .

فالمتمأمل للحديث يجد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) يثبت قضية قضاء الحج، بطريق القياس على الدين، وكان بإمكان النبي الرد

مباشرة، دون التعريض بسؤال آخر (أرأييت لو كان على أمك دين أكننت قاضيته؟) ، لإعمال العقل، والدعوة إلى القياس، عن طريق تشبيه أصل بأصل، ففرش الفروض وسرد الحجج، ليستخلص النتيجة ، وهذا دعوة أيضاً إلى إعمال العقل، في أمور حياتنا الدينية والدنيوية، فقد وضع النبي (صلى الله عليه وسلم) الحجة الأولى : وهي سؤاله فاقضوا الله الذي له ، ثم جاء بالحجة الثانية : فاقضوا الله الذي له الحجة الثالثة : أن النذر بالحج مثل الدين في حق وجوبه . النتيجة : قضاء الحج عن الميت إذا نذر الحج، ومات قبل قضاء نذره، فعلى الورثة بقضاء النذور كقضاء الديون . مستخدماً نظرية السلام الحجاجية كما يوضحها شكل ()

ن : قضاء الحج عن الميت إذا نذر الحج، ومات قبل قضاء نذره، فعلى الورثة بقضاء النذور كقضاء الديون
ح3 : أن النذر بالحج مثل الدين في حق وجوبه

⁴⁷ -صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، بامتنشبهها أصلاً معلوماً بأصله بمينيقدينا اللهم كما ليفهم السائل، ج3، رقم: ص 431 .

⁴⁸ انظر فتح الباري، ج 13 ص 344 .

ح2 : فاقضوا الله الذي له

ح1 : (أرأيت لو كان على أمك دين أكننت قاضيته؟)

وقد استعمل النبي (صلى الله عليه وسلم) القياس أيضاً ليستنبط من خلال عرض حججه النتيجة، التي يريد من المتلقي وصولها له والإقتناع بها أيضاً، كما أرى في حديث أحمد ابن يونس الذي قال : حدثنا ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبرا بشرا وذراعاً بذراعاً» 0 فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال: «ومن الناس إلا أولئك؟» (49) .

فالمراد من قوله : (لا تقوم الساعة ...) : الأخذ على الأشهر هو السيرة، يقال أخذ فلان بأخذ فلان أي سار بسيرته، وما أخذ أخذه، أي ما فعل فعله ولا قصد قصده، وقوله : (شبرا بشبرا وذراعاً بذراعاً) المراد به الطريق، والشبر والذراع والطريق ودخول الجحر تمثيل للاقتداء بهم في كل شيء مما نهى الشرع عنه فذمه .

ويريد بقوله : (كفارس والروم) أي الأمتين المشهورتين في ذلك الوقت، وهم الفرس في ملكهم كسرى، والروم في ملكهم قيصر . (أي كما فعلت فارس والروم) .

ويريد بقوله : (ومن الناس إلا أولئك) : أي فارس والروم لكونهم كانوا إذا ذاك أكبر ملوك الأرض، وألا كثرتهم رعية وأوسعهم بلاداً

وهو استفهام إنكار والتقدير فمن هم غير أولئك؟ ، وعنه – صلى الله عليه وسلم – أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأمم قبلهم، والساعة لا تقوم إلا على شرار الناس، وأن الدين لا يبقى قائماً إلا عند خاصة من الناس .

الحديث رقم 7319 : فُسر بفارس والروم، والحديث رقم 7320 : فُسر باليهود والنصارى ولكن الروم نصارى وقد كان في الفرس يهود (1) .

فالمتمثل للحديث السابق يجد النبي (صلى الله عليه وسلم) جاء بالتشبيه والتمثيل ليقرب إلى أذهان المتلقين المعني الذي يريده، بطريق استنباطي قياسي سهل ، فمن علامات يوم القيامة، أن يسير الناس على نفس خطى المذنبين في كل شيء مما نهى الشرع عنه، وليبيان الاقتداء بهم مثل لكلامه بالذراع والشبر، كفارس والروم في ذلك الوقت، ولكن ليس هما بل قياساً عليهم وتشبيهاً بهم في الأمم القادمة، ولكن مثل لهما بهما لكبر ملكهم، وعلو مكانتهم في ذلك الوقت .

⁴⁹-(انظر فتح الباري ج 13 ، ص 348 ، 349)

(القرون) جمع القرن وهو الأمة من الناس

صفاء حمدي محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

فقد صاغ النبي (صلى الله عليه وسلم) حججه قياساً على البيئة التي حوله، حتي يصل بالمتلقين إلى الصورة المرادة، فوضع مقدمة عامة في بداية كلامه : (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها)، فقد وضع هنا شرطاً لقيام الساعة؛ وأن قيامها لا يتحقق إلا بأخذ القرون التي قبلها .

ثم يأتي بمقدمة صغرى، حتي يقيس عليها للسامع تحقيق المقدمة العامة، وهي : (كفارس والروم؟)، حتي يصل بالمتلقي إلى تخيل النتيجة والوصول إليها، وهي : من علامات الساعة أخذ أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) بأخذ القرون التي قبلها .

كما كان لابد للنبي (صلى الله عليه وسلم) بالتشبيه في هذه القضية وخاصة أنه يتحدث عن أمر غيبي، والأمور الغيبية صعب الاعتقاد بها من ناحية، وأنه يتحدث مع أفراد مختلفي الثقافات والعقول والاعتقاد من ناحية أخرى، وأن الناس في هذا الوقت كانوا ضعاف إعمال العقل في أمور دينهم من ناحية ثالثة، فلتجنبه (صلى الله عليه وسلم) التشتيت، والتفريق أراد أن يثبت الاعتقاد بأشراط الساعة، والإيمان بالأمور الغيبية، بالبعد عن إعمال الفكر فيها .

والمتمأمل في صحيح البخاري يجد أن الصحابة (رضوان الله عليهم) اتخذوا منهجه الحجاجي الاستنباطي في إثبات قضاياهم، كما ورد في الصحيح عن علي بن عبد الله الذي قال :حدثنا حاتم بن وردان حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : كيف - صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبيّن قد بينا للهِكهما ليّفهما السائل، ج3، ص 432 .

تسألون أهل الكتاب عن كتبهم وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهداً بالله تقرعون محضاً لم يشب " (50)

2-صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى : " كل يوم هو في شأن " و " ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث " وقوله تعالى : " لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً " ، ج3 ، رقم الحديث : ص 481 .

(أحدث الأخبار بالله) : أي أقر بما نزلوا إليكم ، (لم يشب) لم يخالطه غيره ، " وصف كلام الله بأنه مخلوق وبين وصفه بأنه محدث " أحال وصفه بالخلق وأجاز وصفه بالحدث، وهذا رأى المعتزلة وأهل الظاهر وهو خطأ .

1-الذكر الموصوف بالإحداث ليس هو نفس كلامه تعالى لقيام الدليل على أن محدثاً ومنشأً ومخزناً ومخلوقاً ألفاظ مترادفة على معنى واحد .

2-الذكر الموصوف بأنه محدث هو الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " فقد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً " والمعنى ما يأتيهم من رسول محدث .

3-يحتمل الذكر أن يكون وعظ الرسول إليهم وتحذيره من المعاصي .

4-أفعال العباد مخلوقة ومراده هنا الحدث بالنسبة للإنزال .

الكراماني : صفات الله تعالى سلبية (التنزيهات)، ووجودية (القديمة) وإضافية (الخلق والرزق)، وهي حادثة ولا يلزم من حدوثها تغير في ذات الله ولا في صفاته الوجودية .

5-تعلق العلم وتعلق القدرة بالمعلومات والمقدورات حادث، وجميع الصفات الفعلية، والإنزال حادث والمنزل قديم . فالقرآن قديم والذكر حادث .

ذهب الجهمية إلى أن القرآن مخلوق ؛ شبه الله بخلقه ولكنه محدث عند الخلق لا عند الله . (كلام الله ليس محدثاً لأنه لم يزل متكلماً لا أنه كان لا يتكلم حتى أحدث كلاماً لنفسه)

المتأمل للحديث السابق، يجد أن ابن عباس يعرض حججه ليستنبط منها النتيجة بأن كتاب الله هو أصح الكتب، والمصدر الرئيسي للتشريع، ودستور المسلمين، فلم ينف عن سؤال أهل الكتاب مباشرة، بل استفهم السائلين متعجباً، (كيف تسألون أهل الكتاب عن كتبهم) ثم جاء بالحجج التي يستنبط ويستدل بها على نهيه، فالحجة الأولى : (وعندكم كتاب الله)، الحجة الثانية : (أقرب الكتب عهداً بالله) ثم جاء بالحجة الثالثة : (تقرعونه محضاً لم يُشَبَّ)، حتى يُستنبط النتيجة من الحجج السابقة، بالنهي عن سؤال أهل الكتاب، وهذا وإن لم يُصرح به نصاً، إلا أنه يؤخذ به، لأنه من التبليغ، والتبليغ على نوعين (51) :

1- وهو الأصل ؛ هو أن يبلغه بعينه وهو خاص بما يتعبد بتلاوته وهو القرآن .

2- أن يبلغ ما يُستنبط من أصول ما تقدم إنزاله، فينزل عليه موافقته فيما استنبطه إما بنصه، وإما بما يدل على موافقته بطريق الأولى .

وهذا النهي من باب ما يُستنبط من أصول ما تقدم إنزاله .

وقد استنبط النبي (صلى الله عليه وسلم) تحريم الربا والقتال، في حجة الوداع

الاستعارة عند بيرلمان حجة وليست صورة فهي حصيلة تفاعل .

يمكن للاستعارة عند بريتون أن تتحول إلى حجة عندما نعمل على الاقتناع .

الحدث : ما أوجد بعد أنه لم يكن وذلك إما في ذاته أو إحدائه عند من حصل عنده ، والذكر يعنى العلم ومنه : " وأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون " ، ومعنى العظة ومنه " ص والقرآن ذي الذكر " ، ومعنى الصلاة " فاسعوا إلى ذكر الله " ، ومعنى الشرف " وإنه لذكر لك ولقومك ، كلها محدثة

الداودي : القرآن الكلام القديم الذي هو من صفات الله تعالى وهو غير محدث بل الحدث يطلق بالنسبة لإلى إنزاله إلى المكلفين وفراءتم له وإقرائهم غيرهم .

اعتاد البخاري أن يشير إلى اللفظ الذي يريده وإيراده لفظاً آخر غيره .

فعدل من أقرب إلى أحدث وهو أليق .

قال عبيد الله : (وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا)

(من كتب الله وغيروا ... إلخ) وقوله " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم

(فلا والله ما رأينا رجلاً ..) تأكيد الخبر بالقسم، لا يسألونكم عن شيء مع علمهم بأن كتابكم لا تحريف فيه فكيف تسالونهم وقد علمتم أن كتابكم محرف .

- (انظر فتح الباري، ج 13 ، ص 564 .

⁵¹ (انظر فتح الباري، ج 13 ص 574)

- (انظر فتح الباري، ج 13 ص 607)

صفاء حمدي محمد على (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)

لا يكون هناك شيء أدل على الصدق في الخطاب من حديث العواطف .

" مثلما تدل على حدوثها وحدثها يدل على افتقارها إلى فاعل قدير قادر قدرة أزلية ، فاصح بالتعبير على الحدوث والحدوث على المحدث " (52) .

التسلسل الحجاجي : الحوار بين الرسول وقومه .

الحجاج بالتعريف : Argumentation Par Définition : يقوم على منطق الاختيار

الاستفهام يخدم مقاصد الخطاب ويلعب دوراً أساسياً في الاقتناع بالحجة .

لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن عالم بمن كلفه مخلص له فيما يعمله .

" الرسول الكريم – عليه السلام – يتخذ من الاستفهام باباً واسعاً لتقرير المعانى ولزيادة الإيضاح ، فكم جاء استفهامه تشويقاً للسامع وقصراً لانتباهه أو استدراجاً وتقريراً ، ليصل عن طريق الاعتراف إلى الاقتناع بخطأ أو صواب ، أو غير هذا من الجوانب التي سنرى بعضها في هذه الوجزة "

اسم الإشارة يجمع بين حرف التنبيه ومعنى القرب

⁵² – انظر الزركشي البرهان في علوم القرآن ، ج 3 ، ص 470 ، 1984 م .

صفاء حمدي محمد علي (حجاجية الاستفهام في الخطاب النبوي)